قصيدة صور

شوقي بزيع

• « أية مدينة كصور، كالمسكتة في قلب البحر »
• « صوت أعوادك لن يسمع بعد »

من نصوص قديمة

والآن يا صورُ،
أيتها الطعنةُ الأبديةُ في جسد البحرِ
والسقطةُ المستقيمةُ نحو الفراغ الذي
يملأ الروح
آن الأوان لكي أكتب الأغنيه
مستعيراً جميع المراثي التي كتبتْ في رثاء المدنْ
أغني لزهرة فينيقيا المطفأة
والثريا التي زينتْ شاطىءَ المتوسطِ ذات مساءٍ
وأسقطها طائرُ العتمة الهائله
منذ أبصر أولُ أبنائها طائراً وادَّعى أنه الأرض
حتى نهاية هذي القصيده
أغني لطفلة هذا الزمان الوحيده
لصور التي لم تعد عاصمه
لصور التي لم تعد قائمه
وأرفع عينيَّ نحو الخدوش التي تركتْها، أظافر كونيةٌ
فوق جلد الرمال
أنا الشاعرُ المتهدّمُ
أسمع قرقعة الطبل تحت فناء البيوتِ
وتهوية العنكبوت على الجسد الآدميّ
وأعلن أني نجوتُ من المجزره
لأدخلها من جديدٍ على صهوة الحبر،
أن المدينة والقبر ليسا نقيضين
أن الحبيبين لا يدخلان إلى الحب إلا وبينهما
طلقةٌ واحده
لذلك كنا نعلّق أرواحنا كالثياب على الأعمده
ونصرخُ:
صـ... و... ر
فيرجعنا بحرها جثثاً هامده
لذلك، يا صور، كنا نحدِّق في شمسكِ الخالده
ونملأ أعيننا بالدموع
لكي لا يظنّ الصغار بأنا نراك ونبكي
أغني لصور

التي اتحدتْ ضدها الزرقتان
التي اشتبكتْ عند القبضتان
التي انكسر الجانبان على رملها اللانهائيِّ
وانتصر البحرُ...
وارتفعتْ فوق رمل المدينة
أقواسُهُ اللاّهبه

* * *

كان ذلك في الصمتِ،
لا الزيتُ كان دليلاً على الشمعدان
ولا الماء يفضي إلى الفضة الساكنه
كان لحمُ الجياد طريّاً كزغب العصافيرِ
والأرجوان دمٌ يتقدم بين الملوكِ
وبين كلاب الملوك
حين لم يكن البحر شيخاً
ولم تكن الأرضُ أكثر من لوحة يتقاذفها الموجُ،
مدَّ الصباحُ يديه إلى الأرض
وافتتح المهرجان بأغنيةٍ إسمها صور
من الحجرِ المتقدّم في السنِّ جاءتْ
ومن لغط الجنِّ في عتمة الليل قُدَّتْ مراكبها
وكان يصوِّبها اللهُ نحو المياهِ
فيُسمعُ للموج في شاطئيها دويٌّ
كما لم يدوِّ انفجارٌ على الأرض
من ذلك الزبدِ ابتدأت آسيا بالبكاء
وقامت على حدق الدمع عينُ السكينه
وقال لها الله: يا صور كوني مدينه
فكانت
وجئنا لها بهواءٍ ملأناه أبنيةً ونساءً
وأرصفة داكنه
لا حصى كان بعدُ لكي نرجم الزوجة الخائنه
ولا شوكَ كي نتبرأ من وخزة البحرِ
كانت العنزةُ الوثنيةُ تكسر سلسلة الظهرِ
ثم تعود إلى قُرنة الأرضِ كي تستريح
هنالك كان النهار يحكُّ على جلد صور الطريّ
فتبني على الرمل أحلامها الساخنه
على الرمل قامت صواريكِ
على الرمل قامت أغانيكِ
على الرمل كان العروسان يبتسمان أمام المصوِّرِ
ثم يغيبان في ضحكةٍ باهته
على الرمل كان الرئيسانِ يقتتلانِ إلى أن تغوص
الغزالةُ في البحر
على الرمل كنا نعمِّرُ في الليل أسوار صور
لكي تختفي في النهارِ

ونهدم أطرافها كلَّ يومٍ لنردم صوتَ الغزاه
على الرمل أنشدت الفتيات:
جدائلي قصصتها
ضفائري عفّرتها
جواهري قد بعتها
مِن أجلكِ يا صور »[1]
وصور الجروحُ
وصور الهواء الكسيح وقد خنقتْهُ الحقيقةُ
في الأوج
والموجُ لا يتقدمُ إلا ليرتدَّ
والعمرُ لا يتهدم إلا ليشتدَّ
صور الزبدْ
وصور الحنين الذي يُطلع الشمس من قبضة اليد
صور هي الحجرُ الضد
في قلب هذا الزمان البخيل
وصفصافه المبتعد
وصور هي الصرخة المستحيلة
في اللاأحد
مدىً يتقدم من جلد ثورٍ يخورُ
إلى رجلٍ صاعدٍ جبل الشعر
من نبع ماءٍ يغورُ
إلى خاتمٍ صامدٍ في يد البحر
من قدمٍ تتسلق شمس الظهيرة
حتى فمٍ يرضع الأبجديةَ
في بدء هذا الخواء الذي نسجتْ صورُ
مريوله الزمنيّ
في جنوب الدم الأبدي الذي حملتْهُ القرونُ بمنقارها
ورمته على ذلك الشط
كنا نجيء إلى السمك العاطفيِّ ونتركه حسكاً
نلثم الجوع فوق شفاه النساء ونتركه ملكاً
وكنا نجيء إليها من المستحيل
لنخترع الأرض من فكرةٍ خاسره
ونأتي إليها لنقفز عن جانحيْ طائرٍ في الجبالِ
إلى الطائره
مَن غير صور التي نعقتْ فوقها بومةُ المرحله
مَنْ غير صور التي تتضرّج كل مساءٍ
بأحلامها الموحله
وصور انبعاثُ السؤالِ القديم عن الله
في اللحظة الحرجه
وأعمدة لاتكاء المكان على نفسهِ
وانحناء الزمان على أمسهِ
وقناطر تعبر من تحتها فتياتُ المدينةِ
نحو غروب مفاتنهنّ
وصور امرأة
تتهادى على صفحة الذكرياتِ
وقد أطبقتْ كفَّها فوق قرطاجةٍ ميتهِ
فتاةٌ تغني بصوتٍ حزينِ
وتقطر من جسمها الهندباء
وتلميذةٌ رفَّعتْها القذيفةُ من صفِّها
باتجاه السماء

* * *

هنا صور
هنا سكنتْ قوةُ الزمن الضاربه
هنا ملكوا، ضحكوا، هلكوا
واستحالوا إلى أتربه
هنا انفجرتْ نجمةٌ غاضبه
هنا صور
أكثر من قريةٍ
وأقلُّ من البحرِ .
أكثر من رجلٍ عابرٍ
وأقل من الدهرِ
أبسط من شارع مزدحمْ
وأصعبُ من طفلةٍ تتذكرُ،
خمسةُ آلاف عامٍ من الانزلاق على زمنٍ أملسٍ
والتمددِ غرب الحقيقة أو شرقها
تدفعنا دائماً للسقوط إلى السفح
قبل العثور على ريشةٍ واحده
صور
زوجة القرويِّ التي هبطت من أعالي القرى
لتبادل بالموز قمح يديها الحزين
وبيوتٌ من القشِّ مملوءةٌ لاجئين
شجراتٌ ثلاثٌ وقفن على الأفق عند حدود فلسطين
واحترقت اثنتان
لكي تصمد الثالثه
صوت أمي التي خرجتْ في الزقاق تودّعني بالوصايا
« بُنيّ انتبه »...
ولم أنتبه بعد ذلك إلا على شوكة الموجِ
لم أستطع أن أعود إلى مصدر الصوت
أو أن أتابع سيري إلى الموت
كنتُ بين الطريقينِ
بين الحويقينِ
في لحظةٍ هي: صور
نقطة هذا الزمانِ التي سقطت في يد الموجِ ،
جملته الاعتراضيةُ
الركض على شاطىء البحر عند الغيابِ
القبابُ

المكان الذي يبدأ الشعر منهُ،
الذي ينزح البحر عنهُ،
الذي لن يعود،
الدموع التي أصبحتْ ذات يوم حدوداً
لأيامنا
الضلوعُ التي لم تعدْ برتقالاً لأيتامنا
كلُّ ما لا نراه نسمّيه صور
الطيور التي لا تطير على هذه الأرضِ
والرغبات الدفينةُ
والفتياتُ اللواتي نراهن في الحلم ثم نضيّعهنّ
لها مدخلٌ واحدٌ
ومخارج تفضي إلى الهاويه
وصور هي الأم والصرخة الداويه
وهي الكفُّ مرفوعةً تستغيث
والجراد يعيث فساداً بحبة قمحٍ يتيمه
وهي الريحُ تضرب سقفَ البيوت القديمه
وهي الانقشاع الملائمُ للقصفِ
والدورانُ على حَجَرٍ اسمهُ الخوفُ
والفتاةُ الصغيرةُ إذ تتجمّع في الزاويه
وتزرع بإصبعها الانفجار الذي دكَّ غرفة نومٍ
على رعشة خاويه

* * *

أين همْ
أين هديل قراهمْ
وأنينُ بيادرهم
ورنينُ مقابرهم
أين الشموسُ التي ركضتْ في دفاترهم
على قمر ساطع في الليالي القصيّةِ
في وحشة جثمة حول «زبقين»[٢]
أو عند «قانا الجليل»[٣]
هنالك كانت قراهم تودّعهم بالمرايا
لكي يلمعوا من بعيدٍ على صفحة الماء
حملوا معهم غصن تين قديمٍ
وراحوا إلى حيث لا ينبتُ التبغُ
وانحدروا في السفوح إلى غيرِ رجعه
كان أولهمُ لا يجيد القراءةَ
آخرُهم لا يجيد النساءَ
وجاءوا إلى صور
وانتشروا بين أسواقها ثم ماتوا
ولم يتركوا ما يدلُّ على روحهم غير
أغنيةٍ يابسه
أين هم أيها البحرُ
هل أبصرتْ جمعهم عينُك الحارسه؟
- أنا البحر لا أتنصّتُ إلا لموجةِ روحي
ولا أتوقّفُ عند التفاصيلِ
شاهدتُهم يهبطون إلى السفح مثل طبولٍ خرافيةٍ
ويدقّون فوق جدار المدينه
وشاهدتُهم يهدمون القرى ليقيموا على الموجِ
أسوارها العاليه
وشاهدتُهم يحملون الغرابيلَ بحثاً عن الذهبِ
الأزليِّ الذي طمرتْهُ المدينةُ في الرملِ
قبل قرونٍ
فأغرقتهم واحداً واحداً
وأمرتُ الرياح بأن تتزيّا بزيِّ الطيورِ
الأبابيلِ
ثم لَطمتُ المدينةَ حتى تداعتْ على ساكنيها
لأني أنا البحر،
أمدّ يدي للشموسِ وأشوي عليها الملوك
وأرفع كفي وأصفع أقفية الأنبياء
أنا البحرُ سيّد هذا الفراغ العظيم
وقبضته الهادره
أنا المتجوّلُ بين الهواءِ وبين حطام الهواءِ
المسيِّلُ دمعَ النساء
على الشرفة الساحره
هكذا سقطوا بين فكيَّ وانقرضوا:
صانعو خزف الطرقاتِ وفخّارها المنصرم
واللاعبون بسيف الحقيقةِ
والجالسون على مدرج الأرضِ
والنائمون على مدخل الأبجديّات
في اللحظة الغابره
وتقدّمتُ من حجرٍ في المدينة
ثم تفرّستُ في رملها الملتهب
رأيتُ رجالاً بلون الغبار
وموجاً يسيل على عزلة خانقه
وقرنين يحترقان على رأس اسكندرٍ أشعل النار في روحه ومضى هارباً في السهولِ
وظلت تلوح على الأفق جبهتُهُ النازفه
رأيتُ نساءً يولولن خلفَ صفيرِ قطاراتهنَّ
التي ذهبتْ مسرعه
رأيتُ بيوتاً تصيحُ وتسقطُ كالديكة
وأسماكَ قرشٍ خرافية
تتقدّم مسرعة وتقضُّ المدينة
تماسيحَ تزحف بين الأزقّةِ باحثةً عن
دموعٍ جديده
عرباتِ خضارٍ تهاجم سرباً من الفتياتِ

وتقضم أجسادهنّ
لقد هزمتنا البيوتُ
وأخلى النهارُ أماكنه للمقاهي
وللغرف الداخلية،
لاح المذنَّبُ في الافقِ
وابتدأت في سماء المدينة أولى علاماتهِ:
رعدٌ على قبر حيرام
بابٌ قديم تحركه نسمة الصمتِ،
عدو حصانٍ على قممِ الأرضِ
عينٌ تطوف على سهل صور
وتغمضهُ،
نصف مجنزرةٍ فوق نصف امرأةٍ
طفلةٌ تطلب الماء من أمها فتعاجلها
نبلةٌ في الوريد
ينادي القتيلُ على نفسه ثم يغلق تابوته
ويعودُ إلى قبره من جديد
حين تأتي القذيفة نأوي إلى جلدنا
ونحدّقُ في الصمتِ
والصوتُ يخرج من نقطة في الحدودِ
إلى نقطةٍ في الجسدْ
للمدينة أن تبدأ العدّ
هذه اليدُ للحبِّ
لكنها الآن مقطوعةٌ
ذلك الأسود امرأةٌ في الحدادِ
وهذا الحطامُ لتنهيدةٍ مزمنه
سقطتْ حرمةُ الأمكنه
ودوى على الرمل «علاّقة» فارغٌ
والعصافير صارت تغني إلى الخلف مثل كلابِ
شتائيةٍ ثم تسقط في الوحلِ
واحتزّتِ الشمسُ رأس السنة
يخيل للمتأملِ أن الجدار الذي خلفه لم يعد خلفه
وللمتكلّمِ أنَ الذي يتكلمُ فيه هو الموت
ولا يصل الصوتُ بين الصديقين
لا تصل العينُ إلا إلى نفسها
كأن الفضاء مرايا الجسدْ
تراجعت الخطواتُ
تراجعت الشجراتُ إلى ما وراء الخريف الذي
احتلّ هذا المكان
طاقةٌ في الزمان
وخمسة عشر صبياً يعودون من رحلة الأمس
نحو منازلهم
تاركين على الرمل مصباحَ سيارةٍ ميته
ومدارسُ مهجورةٌ يقرع الخوف أجراسها

بعد ذلك يعلو الذبابُ ويصعد في الأرضِ
حتى يغطي بياض القمرْ
كأن الذين مشوا في النهار استحالوا ظلالاً
تحوم على شمعة الروحِ
أو حائطاً للصورْ

★ ★ ★

أيها البائعُ المتجولُ
بعْني حجر
لأسندَ هذي المدينه
أيها الشاعرُ المتجولُ
بعني قصيدة
لأرثي خرائبها
أيها العاشقُ المتجوّلُ
بعني دموعاً
تناسب هذا الحطام

★ ★ ★

عند مدخل صور
موعدٌ منطفىءْ
والهوى لم يجىءْ
عند مدخل صور
فوق حيِّ السراي
قمرٌ وجنوبْ
قلتُ قلبيَ ناي
وحنيني ثقوبْ
فوق حي الخرابْ
قطعٌ من سفينه
وبقايا مدينه
أخطأتْ في الحسابْ

★ ★ ★

ها هي صور
التي هدمتْ نفسها كي ترى البحر
ترسبُ في القاع كالسفن الغارقه
أعذبُ الفتيات تهدَّمنَ تحت أنوثتهنّ
ومنى لم تعد تتمشى على شارع الاستراحة
عند المساء بأثوابها الزاهيه
وأنا لم أعدْ أنتظر
هبوب يديها على شرفة الذاكره
مضى أجمل الأصدقاءِ
ولم يتركوا غير ضحكاتهم في فراغ المدينة:
زاهي[4] وقد غادر الثانوية ذات صباحٍ
تاركاً خلفه جملةً ناقصه

وعبد اللطيف[٥] الذي انطفأتْ روحه نسمةٌ باردة
وكسَّرت الريحُ نظارتَيْه
فظل يهوّمُ خلف سوادٍ كثيفٍ
ولا يجد الأرض
ووردة «رزوق»[٦] عائمةٌ فوق سطح المياه
تصارع موجاً لئيم

★ ★ ★

سأعدو على شاطىء البحر وحدي
وأصرخ يا صور
حتى يردّ الصدى وردة أو صديق
سأحمل رمّان قلبي إلى رملها الذهبيّ
وأسفحه كالنجوم على صدرها المختنق
لا أريد النجومَ التي انطفأتْ
والبيوت التي أصبحتْ أثراً بعد عين
لا أريد استعادة رِجْل الصبيّ التي
علقتْ بين فكيْ مجزرةٍ مسرعه
أريدُ فقط هدنةً
لألمّ زيتون قلبي عن الرمل
وأحصي حطام الأحبة والأصدقاء
إنه التيه
يكشف الإبن وجهَ أبيهِ فلا يعرف السرّ
يقلب المرء صفحة أيامه فيفاجئه القبرُ
تعدو النهايات خلف البداياتِ
والفجرُ يأتي وما من أحدْ
كأن الذي خلّفته الحياةُ على الأرضِ
ليس الجسدْ
كأنا نهرول في حلمٍ يبتعد
هاتوا يديكم وأصواتكم
لنرفعها كالعلمْ
سنغني لبحرٍ أضعناهُ
لامرأةٍ لم تنمْ
نغنّي
إلى أن يصاب المدى بالسأمْ
لم تزل في العظام بقايا
لم تزل في الحطام مرايا لغير الفراغ
في خندقٍ اسمه الأرض نصمدُ،
أو في مدىً أصغرٍ يصنع البرتقالة والنبضَ
نصمدُ،
تحت المدينةِ
أو فوق سطح الخريفِ الذي اغتالها
ونجمّع أوصالها كطيورٍ خرافيةٍ
ثم نطلقها عبر هذا الخراب
ونصمدُ
حتى يكف عن الركضِ في حدق الشمسِ
هذا الغراب
ونصمدُ في ملجأ الروحِ
أو في بيوت التنك
ونلقي شباكاً على الطائرات
ونسحبها كالسمك
ونعصر أرواحنا فوق شاطىء صور
الذي غربتْ شمسُهُ
ثم ننشرها فوق قبّةِ هذا الفلك
نحن الذين تبقّوا على رمل صور
الذين استطاعوا النجاة من الزلزلة
سنصنع من نبضها المتبقي نشيداً
لأيامنا المقبله
على مدخل البحرِ نكتب أن المدينة لا تنحني
على مدخل القبر نكتب أن المدينة لا تتهدم
إلاّ لكي تنبني
وسنوقف هذا العجوز الذي اسمه الانتصار
على قدمٍ واحده
ولو بقيتْ من منازلنا فسحةٌ بارده
ولو بقيتْ من مراكبنا موجةٌ عائده
ولو بقيتْ من مقابرنا لوحةٌ شاهده
تشيخُ الرمالُ وتذبلُ
والماء يضرب سطحَ الكره
يشيخ الترابُ ويسقط في حضنِ ابنته الشجره
ونحن نؤلف هذا النشيد الجماعيّ
كي تنتهي فيه
صرخاتنا المدلهّمةُ
أو روحنا المقفره
ونجذّفُ في قلب هذا الظلامِ
إلى آخر البحرِ
أو آخر المجزرة

شوقي بزيع

إشارات

(١) نشيد كانت نردده فتيات صور أثناء حصار الاسكندر للمدينة.
(٢) و(٣) قرينان قريبتان من صور.
(٤) أستاذ في ثانوية صور استشهد في معركة الدامور سنة ١٩٧٦.
(٥) أستاذ في ثانوية صور استشهد السنة الماضية.
(٦) أحد ظرفاء المدينة. كان يعمّر قبعة ويحمل عصا ويضع وردة على صدره ويخرج إلى الشوارع بأبهة جنرال. قتل أثناء القصف الإسرائيلي على المدينة.